جوانب من الديمغرافية التاريخية لليهود
والنصارى بالمغرب في العصر المريني

مصطفى نشاط
كلية الاداب - وجدة -

Mostafa Nachat

Données sur la démographie historique des juifs et des chrétiens au Maroc à l'époque Mérinide.

Résumé :

L'objet de l'intervention consiste à fournir des donnés statistiques sur la présence des juifs et des chrétiens au Maroc mérinite (leur nombre, les lieux et la durée de leur séjour ou présence...)

Data on Jewish and Christian historical demography in Merinid Morocco

Abstract :

The present paper aims at providing statistical data on the presence of Jews and Christians in Merinid Morocco, considering their number, the place and period of their stay, etc.

كنانيش: منشورات كلية الآداب - وجدة. 1999 ص. 65 - 80

جوانب من الديمغرافية التاريخية لليهود والنصارى بالمغرب في العصر المريني

تتغيأ هذه المساهمة بسط بعض الأرقام التي جادت بها المصادر عن الحضور اليهودي والمسيحي بالمغرب في العصر المريني، وذلك لما للرقم من أهمية في تجسيد البعد الحضاري، وفي اتخاذه مؤشرا لمراقبة بعض الجوانب المرتبطة بحقل الديمغرافيا التاريخية. ومن هذه الجوانب عدد هذين العنصرين بالمغرب آنذاك، وتوزيعهما الجغرافي، ومدة استقرارهما بالبلاد. ونستند في رصد هذه الجوانب إلى بعض المصادر العربية المتداولة وإلى بعض الإشارات الواردة بالأرشيف الجنوي.

1) جوانب من الديمغرافية التاريخية لليهود بالمغرب المريني:

شكل العصر المريني فترة ذهبية لحضور اليهود بالمغرب الوسيط، خاصة وأنه تلا مرحلة عجت بمظاهر المضايقة التي عانوا منها في العصر الموحدي[1]. على أنه وجب التذكير بأن اليهودية لم تزل من المغرب بفعل السياسة المتشددة لبعض الخلفاء الموحدين، كما أن الغطرسة الموحدية لم تقتصر على اليهود فقط، بل طالت المسلمين كذلك، ومن ضمنهم بعض القبائل الموحدية التي لم تكن لها الغلبة في النظام.

ولا يسمح المقام بعرض مختلف الآراء التي حاولت تعليل أسباب التقارب الذي حصل بين المرينيين واليهود[2]. وللدلالة على ذلك التقارب، اخترنا ثلاث محطات من عمر الدولة المرينية. ففي بدايات الدولة كانت لليهودي خليفة بن رقاصة حظوة كبيرة لدى السلطان يعقوب حتى أنه تبوأ منصب الحجابة، وهو ثاني منصب من حيث الأهمية بعد منصب السلطان المريني، وهكذا «عظمت رياسته وعلا كعبه في الدولة وتلقى الخاصة الأوامر منه، فصار له الوجه بينهم وعظم قدره»[3]. وحين استبحر عمران الدولة على عهد السلطان أبي الربيع سليمان، ظفر اليهودي أبو خزر بمكانة عالية «يقصر عنها الوصف حتى إن جميع الجيش ينادونه سيدي أبي خزر»[4]. وفي فترة ضعف الدولة، أصبح لليهودي هارون بن بطش سطوة كبيرة، فكان هو «الوزير في الحقيقة ولا وزير غيره... وصار إلى اليهودي الأمر والنهي في مملكة فاس»[5].

كما كانت لليهود اليد الطولى في الحياة الاقتصادية في العصر المريني. فقد سيطروا على تجارة القوافل المؤدية إلى السودان، حتى إن طريق الذهب – على حد تعبير ديفورك – أصبح « طريقا يهوديا »[6]. ولا غرو أنهم أصبحوا يتحكمون في ضرب العملة المغربية، كما لم يتوانوا عن تزييفها[7]. ودخل اليهود المغاربة في علاقات تجارية مباشرة مع دول الحوض الشمالي الغربي للبحر المتوسط[8]، وساهموا ،كسفراء ، في تمتين العلاقات بين المغرب المريني والممالك المسيحية[9].

تمت الإشارة إلى بعض مظاهر أهمية الحضور اليهودي بالمغرب في العصر المريني لتأكيد أن التقارب بين السلطة المرينية واليهود أفرز مناخا مساعدا لهؤلاء للتوافد على المغرب أو للاستقرار به عصرئذ. تتحدث إحدى الدراسات المعاصرة – دون أن تقدم المصدر – عن وجود عشرات الآلاف من اليهود بالمغرب المريني[10]. وفي الغالب أن العدد تم استقراؤه من خلال اللوحة التي يقدمها الوزان عن توزيع اليهود بالمغرب في عصره، والذي يمكن اعتباره امتدادا للعصر المريني. فقد أشار إلى ثلاثة عشر موقعا بالمغرب لوجود اليهود ضمن مجال يمتد من باديس إلى درعة. ويمكننا أن نلاحظ ثلاث صيغ ترد بها إشاراته عن اليهود. فأحيانا يتحدث عن العدد الوافر أو الكثير منهم[11]، وأحيانا أخرى يقدم صيغة دالة على كثرتهم، كما هو الشأن بفاس حيث « كثر عددهم حتى إنه لم يعد بالإمكان معرفته »، وأخيرا قد يبسط أرقاما عن عدد دورهم ،كما هو الحال بتازى ، حيث توفروا على 500 دار.

إن هذه اللوحة لاتسمح بتلمس عدد اليهود بالمغرب المريني ، نظرا لطابعها التعميمي، ثم لأنه من الصعب تحديد عدد أفراد الدار أو بعض الوحدات الأخرى ، التي يقدمها الوزان، خاصة منها الكوانين، وذلك لانتفاء معامل متفق عليها لتحويل عدد من تلك الوحدات إلى عدد من الأشخاص[12]. غير أنه أمام صعوبة تقديم أعداد مفترضة عن اليهود بالمغرب آنذاك، قد يمكننا التفكير بشيء من الاطمئنان في أنه شهد ارتفاعا مقارنة مع ما كان عليه في العصر الموحدي، ومرد ذلك إلى المناخ الإثني والعقدي الذي طبع العصر المريني. فقد ازداد عدد الوافدين من إسبانيا سواء من اليهود أو من المسلمين بموازاة مع حروب الاسترداد وسيطرة المسيحيين على الثغور الإسلامية

بالأندلس، وأصبح المغرب المريني قبلة مفضلة للمرتزقة النصارى، وبفعل هذا التنوع الإثني والعقدي تزايد الشعور بالتسامح إزاء اليهود[13].

لقد شكل المغرب الأقصى وبلاد المغرب عموما إحدى أهم البلاد المفضلة للجوء اليهود المطرودين من الأندلس سنة 1391 نظرا لما وجدوه بها من تسامح ، سواء من جانب المجتمع أو من جانب السلطة[14]. بل إن بعض الدراسات اليهودية تتحدث عن لجوئهم إلى المنطقة حتى قبل صدور مراسيم طردهم سنة 1391[15]. صحيح أن ثمة بعض الإشارات الواردة عن وجود حالات لمضايقة اليهود بالمغرب الأقصى، كالتي يذكرها **Ephraim En kawa** ، الذي قضى فترة بمراكش سنة 1393، غير أن تلك المضايقات تشكل حالات استثنائية، وتعكس الجو العام الذي طبع المنطقة آنذاك بفعل الصراع الداخلي، وانعدام الأمن، وعموما فإننا لانتوفر على تقارير تتحدث عن وجود اضطهاد عرقي أو ديني من جانب المسلمين تجاه المهاجرين اليهود[13].

أما بخصوص التوزيع الجغرافي لليهود بالمغرب المريني، فيبدو أنه جاء مواكبا لتوزيع أهم الخطوط التجارية. وكانت قاعدة فاس ، بحكم أهميتها الاقتصادية ، في طليعة المراكز التي استقر بها اليهود، وإذا ما جاز قبول أحد الرقمين اللذين يوردهما ابن أبي زرع في قرطاسه عن أحداث ثورة العامة على اليهود بفاس سنة 674 هـ، فإنه وجد بها ما يفوق 14 ألف فردا[17].

وقد حاولت بعض الدراسات الحديثة تقديم أرقام مفترضة عن ساكنة فاس المرينية، ومن ضمنها دراسة **Gaillard** الذي أسس افتراضه على اعتبار أن فاس في العصر المريني كانت أكثر عمرانا عما أصبحت عليه في نهاية القرن 19 م، فاحتمل وجود حوالي 125 ألف نسمة بفاس المرينية[18]، وبدون الخوض في المقاييس التي اعتمدها في تحديد عدد سكان المدينة، فإنه لو سلمنا بوجود هذا العدد، ولو أخذنا بعين الاعتبار باقي أعداد اليهود الذين لم تطلهم «فتنة العامة»، فمن الراجح أن عدد يهود فاس المرينية قد شكل نسبة تفوق عشر العدد الإجمالي لسكان المدينة.

يستخلص من « الدوحة المشتبكة » أن اليهود وجدوا بأهم مكونات النسيج الاقتصادي للمدينة، كالصياغة وضرب العملة وبيع الخمور، كما تعاطى الفقراء منهم للصباغة والدباغة، وكان أكثرهم حمالين وخياطين وكيالين[19]، وقد تعاطى أغنياؤهم للتجارة البعيدة، وتحتفظ المصادر

الأجنبية بأسماء أسر يهودية استقرت بفاس وبميورقة في آن واحد بهدف التجارة مثل إسحاق ليفي، وصمويل بن شولون، وصمويل وحيون ومردخاي بن هارون بكري، وأبرهام، ويحي بن نجار[20]. وللإشارة فإن عبد الحق الإسلامي – وهو يهودي اعتنق الإسلام – ألف سنة 796 هـ كتابا سماه : « السيف الممدود في الرد على أخبار اليهود » لمقارعتهم وإبطال دعواهم، وليس من المستبعد أن يكون تأليف الكتاب ، الذي جاء بطلب من الحاجب المريني القبائلي، حركته كذلك دوافع مرتبطة بما لوحظ من تزايد في حظوة اليهود بفاس[21].

كما استقر اليهود بسبتة باعتبارها بوابة المغرب على الضفة الغربية للبحر المتوسط ومحطة ضرورية في شبكة العلاقات الاقتصادية الرابطة بين إفريقيا الصحراوية وأوربا[22]. وإذا كنا نعدم – على ضوء المادة المطلع عليها – إشارة لوجود حي خاص – ملاح – لليهود بسبتة، وذلك عكس ما كان عليه اليهود بفاس[23]، فثمة بعض الإشارات التي تؤكد نشاط يهود هذه المدينة في التجارة مع أوربا[24].

وشكلت سجلماسة ثالث أهم المراكز التجارية التي استقر بها اليهود بالمغرب المريني. لقد ظلت هذه المدينة أهم محطة على طريق القوافل المؤدي إلى السودان، وانطلاقا منها تحكم اليهود في تجارة الذهب طيلة العصر الوسيط[25]، ومن المفيد الإشارة إلى اكتشاف مخلفات مادية عن وجود اليهود بنمطقة توات تعود إلى العصر المريني[26]. وبخصوص يهود سجلماسة، تستوقفنا بعض المعطيات التي وردت بوثيقة إسبانية تتحدث عن موافقة جاك الثاني ملك أراغون سنة 1247 لكل يهود سجلماسة بالانتقال والاستقرار بميورقة أو بلنسية أو برشلونة، أو بأي منطقة تدخل تحت حكمه. تذكر الوثيقة ثلاث أسر من يهود سجلماسة، وهي أسرة سليمان بن عمار وزوجته ريانا وولديه يعقوب ويوسف وبنتيه منى وست هدار **Set Haddar**؟ ويوسف زوج منى، ثم أسرة إسحاق بن سليمان وزوجته يمن وولديه يوسف ويعقوب وابنته نيني، أما آخر أسرة فهي لعمار ، أخ سليمان بن عمار وزوجته، وتشير الوثيقة إلى أبنائهما وبناتهما دون تحديد الأسماء[27].

إن عدد الأسر اليهودية – حسب ما تفيده الوثيقة – يحوم حول خمسة أفراد، وهذا الرقم تميل إليه الكثير من الدراسات الحديثة في تقديرها لعدد أفراد الأسرة بحوض البحر المتوسط، فهل حام عدد الأسرة اليهودية المغربية حول نفس الرقم في العصر المريني؟ كما أن الوثيقة تشير إلى وجود

أواصر قربى بين الأسر الثلاثة، ومجموع أفراد هذه الأسر لا يقل عن عشرين فردا، ونعلم أن الدار اليهوية - المكونة من بعض الأسر - إلى حدود نهاية القرن الماضي كانت تتكون بالمغرب من حوالي 24 فردا(28). فهل يعني ذلك أن معدل أفراد الدار اليهودية لم يعرف تغييرا كبيرا ما بين القرنين 13 و19م؟ سؤالان نكتفي بإثارتهما لأننا لا نمتلك مادة مصدرية كافية وقمينة بالخوض في هذه الجوانب التي تدخل في صميم اهتمامات الديمغرافيا التاريخية.

لقد شكل محور سجلماسة - فاس - سبتة مجالا أساسيا لحضور اليهود بالمغرب في العصر المريني. كما أنهم استقروا بالمراكز الشهيرة بإنتاجها المعدني، وخاصة تلك التي كانت توجه بعضا من إنتاجها إلى السودان(28) غير أن الحضور اليهودي لم يقتصر فقط على المراكز الحضرية، بل تجاوزه إلى تعاطي النزر القليل منهم للأنشطة الفلاحية. فمن المعلوم أن العمل الزراعي قلما استهوى اليهود باعتباره عملا شاقا، ثم لأن جني مردوده يتطلب وقتا طويلا(29).

2) النصارى بالمغرب المريني: جوانب من الديمغرافيا التاريخية:

بموازاة مع تزايد العنصر اليهودي بالمغرب في العصر المريني، يبدو أن البلاد عرفت كذلك تزايدا في توافد العنصر المسيحي عليها، ويمكننا أن نعزو ذلك - كما سنرى - إلى طبيعة الأسس التي أقامت عليها السلطة المرينية توازناتها ، ثم إلى الظرفية الاقتصادية والسياسية بالحوض الغربي للمتوسط، والتي شهدت تحولا ملحوظا منذ وقعة العقاب.

وقد تم دخول أو استقرار النصارى بالمغرب المريني من خلال أربع قنوات:

أ - التجارة: لانتوفر على معطى إحصائي عن مساهمة عائدات دواوين البحر في مداخيل الدولة المرينية. ولكننا بالعودة إلى كتاب الفلورنسي بيغولوتي الذي ضمنه إشارات نادرة عن نسبة الضرائب التي استخلصتها السلطة المرينية من التجار الأوربيين، وبالاستئناس بأطروحة برانشفيغ **BRUNSCHVIG** عن الدولة الحفصية - التي لم تكن تختلف في بنياتها عن الدولة المرينية - حيث تحدث عن مساهمة العائدات الجمركية لميناء تونس فيما يقارب الثلث من مداخيل الدولة الحفصية، يمكننا أن نتمثل مدى أهمية العائدات الجمركية في مداخيل الدولة المرينية. ولهذا فإن السلطة المرينية كانت مدعوة إلى ضمان حماية التجار النصارى الذين ترددوا بكثرة على الموانئ المغربية.

لقد عاش التجار المسيحيون بفنادق تتوفر على أهم ضروريات الاستقرار. وكان الفندق بمثابة مدينة داخل المدينة المغربية. وتوزعت الفنادق بعدة مدن مغربية مثل سبتة التي وجدت بها سبع قبالة ديوان البحر(29)، كما سكن التجار النصارى بفنادقهم بأصيلا والعرائش وسلا وأنفا. ويبدو أن فاسا كانت المدينة الداخلية الوحيدة التي توفروا بها على فنادق، وفي حالة غيابها، فإن السلطة المرينية تعهدت بتخصيص دور للتجار النصارى يأوون إليها(30).

ويستفاد من النصوص الأجنبية أن هؤلاء التجار قدموا من عدة مدن ودول أوربية مثل جنوة وبيزة والبندقية ومارسيليا وأراغون وقشتالة. بينما يصعب تحديد منطقة قدومهم انطلاقا من المصادر المغربية، إذ تكتفي في الغالب بالحديث عن الروم أو النصارى(31). ولم تسمح لنا المادة التي تم الاطلاع عليها بتحديد عدد التجار النصارى الذين قاموا بفنادقهم بالمغرب المريني. على أنه يمكن أن نستأنس برقم تقدمه الوثائق الجنوية عن عدد التجار الجنويين الذين عاشوا بفنادقهم بميناء تونس الحفصية، فحسب عقود حررها الموثق الجنوي باتفليو **Battifoglio** خلال سنة 1289 بتونس، فقد وجد بتلك الفنادق حوالي 300 تاجر.

وبطبيعة الحال، فإن هذا الرقم لايتضمن أعداد باقي الأوربيين الذين سكنوا نفس الفنادق. ولعل هذا لايستقيم مع ماذهب إليه برانشفيغ لما تحدث عن عدم تجاوز عدد التجار النصارى ببلاد المغرب العشرات على أقصى تقدير بالنسبة لكل جنسية(32). ولا شك في أن رأيه استند إلى ما كان معروفا عند إعداده لأطروحته (الأربعينات) من مصادر عن الحضور المسيحي ببلاد المغرب، بينما لم يكشف النقاب عن عقود الموثق باتفليو إلا مع السبعينات.

ويبدو من الصعب كذلك مسايرته في القول بأن مقام التجار النصارى بالمغرب كان ظرفيا بحجة أن السلطة المغربية منعتهم من اصطحاب أو استقدام النساء، ثم لتعذر زواجهم بنساء أهل البلاد. فالظاهر أن مسألة الجنس لم تكن عائقا أمام استقرار التجار النصارى بالمنطقة. هكذا تتحدث بعض النصوص عن وفاة زوجات مسيحيات في الحرب التي جرت بين الأمير أبي علي السلطان أبي سعيد سنة 1315، ومن ضمنهن **Marciana Segui** زوجة برنارد سيكي، الذي كان قائدا أعلى للجيوش الأراغونية المرتزقة بالمغرب، كما كان كذلك من التجار النصارى الكبار بالمنطقة(33). وثمة

حدث – أورده نص أجنبي – قد يبدو معزولا، لكنه لربما يدل على أن جسور الاتصال «العاطفي» بين النصارى وبنات البلاد كانت ممكنة حتى على أعلى المستويات، فقد كان أحد الفرسان الأراغونيين على وشك الإرتداد عن دينه بفعل حبه لإحدى الأميرات المرينيات[34].

وتجدر الإشارة، في السياق نفسه، إلى أن قنصل مارسيليا بسبتة كان مطالبا، وفقا للقوانين البحرية الجاري بها العمل، بعدم فتح بيوت للدعارة بفندق المارسيليين بالمدينة المغربية[35]، ولعل مجرد طرح مسألة المنع هذه، تؤشر على أن حل التناقص الجنسي لم يكن دائما عائقا أمام استقرار النصارى ببلاد المغرب. ولا تخلو النصوص الجنوية من ذكر حالات للزواج غير الشرعي بالفنادق الجنوية بالمنطقة[36].

إن النبش في موضوع الدعارة بالمغرب الوسيط قد لايخلو من أهمية، شأنه في ذلك شأن باقي المواضيع ذات الصلة بالديمغرافيا التاريخية كطرق منع الحمل وأشكال العلاقات غير الشرعية.... صحيح أننا لا نطمح إلى كتابة مواضيع في مستوى أبحاث لوبران **Lebrand** ، الذي كتب في موضوع الحياة الزوجية بفرنسا قبل الثورة (1975)، أو سولي **Seuli**، الذي كتب في الحب بالغرب في العصر الحديث، (1976). غير أن هذا قد لا يمنع من توظيف الإشارات التي وردت عن موضوع الدعارة بالمغرب الوسيط مثل «المغرب في حلى المغرب» لابن سعيد و«المغرب» للبكري و«نزهة الألباب فيما لايوجد في كتاب» للتفاشي، فضلا عما تختزنه كتب الحسبة والبدع والنوازل عن الموضوع ذاته.

وكيفما كان الأمر، فالظاهر أن مقام التجار النصارى بالمغرب لم يكن قصيرا في بعض الحالات. هكذا يشير أحد العقود إلى أن الجنوي Pagane ابن Marchesio de Folo أقام بسبتة مدة 24 شهرا[37]، كما أن بعض الجنويين المستقرين بسبتة نجحوا في امتلاك دور ومنازل خارج الفندق، **extrafundicum** وبالضبط قرب دار الصناعة بالمدينة[38]، وحسب وصف الأنصاري، فإن دار الصناعة كانت موجودة خارج فنادق النصارى.

ب: الإرتزاق: شكلت ظاهرة الاستجاشة بالمرتزقة النصارى إحدى ثوابت الدولة المغربية في العصر الوسيط منذ أن استجلبهم علي بن يوسف المرابطي من الأندلس إلى المغرب. وعلى الرغم من أن حضور المرتزقة النصارى بالدولة المغربية كان يحيل مباشرة إلى حضور المحرم والمحظور بها، وعلى

الرغم من أن كل عصبية ظافرة بالحكم حملت شعار محاربة الكفار والبدع، فإن الاستجاشة بالمرتزقة النصارى استمرت عبر تاريخ المرابطين والموحدين والمرينيين(39).

والظاهر أن أعداد المرتزقة النصارى تزايدت بالمغرب المريني أكثر من أي وقت مضى لجملة اعتبارات مرتبطة بنوعية الأسس التي أرسى المرينيون توازنات حكمهم عليها. ويبدو أن هذه الاعتبارات تتمثل في الفقر المذهبي الذي قام عليه الحكم المريني، وحاجة المرينيين إلى فسيفساء من العناصر المساهمة في غلبة سلطتهم، وطول أمد احتضار الدولة الموحدية، والضعف العددي للعصبية المرينية. ونظرا لهذه الحيثيات، ولأن الدولة المرينية كانت تؤدي الرواتب للمسيحيين المرتزقة لديها ذهبا، فقد توافدت على المغرب عناصر من أهم الدول الأوربية المجاورة، وعبر قنوات مختلفة. وقد وصل معظم الجنود في إطار ما نصت عليه الاتفاقيات المبرمة بين الطرفين، كما أن بعض الجنود فضلوا الالتجاء لخدمة المرينيين فرارا من دولهم أو لوجود مشاكل بينهم وبين حكامهم. أما أعلى رقم تقدمه المصادر عن عدد المرتزقة النصارى بالدولة المرينية فهو الذي أورده العمري عن عهد أبي الحسن حيث وصل إلى أربعة آلاف جندي(40). ولا نستبعد ارتفاع هذا العدد أكثر في عهد أبي عنان(41) الذي شهد انفتاحا ملحوظا على الدول الأوربية، والذي يعززه ارتفاع عدد المعاهدات التي وقعها هذا السلطان مع مدن ودول غرب أوربا المتوسطية.

ويصعب – مرة أخرى – تحديد مواطن استجلاب المرتزقة النصارى انطلاقا من النصوص العربية لأنها تتحدث في الغالب الأعم عن « الروم »، غير أنه من خلال النصوص الأوربية يتبين أن معظمهم كان من مملكة أراغون أو قشتالة، وقليل منهم من البرتغال. ويحتمل تشياسكا **Ciasca** إمكانية وجود بعض الجنود المرتزقة الجنويين بالدولة المغربية ، بالنظر إلى تفوقهم العسكري وأسلوبهم في القتال، ولا سيما على مستوى فرقة النبالة(42).

وقد عاش القسم الأعظم من المرتزقة النصارى بالعاصمة فاس إلى جانب السلطان، ونعلم أن أبا يوسف يعقوب أخرج أجناد الروم الذين كانوا يسكنون مدينة فاس عنها، وبنى لهم حظيرة بخارجها وأسكنهم فيها(43)، وكانوا يشكلون الحرس الخاص للسلطان المريني . وساهم في ثقة السلطان بالمرتزقة النصارى أسلوبهم القتالي الذي لم يكن يقوم على الكر والفر ،كعادة الجيوش الإسلامية(44). وإضافة إلى فاس وجد المرتزقة النصارى بمدن أخرى كالرباط ومراكش.

ونظرا للأجواء الملائمة التي عاش فيها المرتزقة النصارى بالدولة المرينية، ولأهمية الرواتب التي خصتهم بها، فإن بعضهم مكث مدة طويلة في خدمتها. ويمكن أن نقدم نموذجا عن ذلك بقائد الجيوش الأراغونية بالمغرب، الذي قضى في خدمته مدة جاوزت العشر سنوات(45).

ج: **الاسترقاق:** وجد العبيد «البيض» بالمغرب المريني من خلال مصدرين، وهما التجارة والقرصنة. فقبل اجتياح الطاعون الأسود لغرب أوربا وما أحدثه من استنزاف بشري(46)، عرفت هذه المنطقة فائضا في أعداد العبيد، حتى إن دولها كانت تبيع العبيد للدول الإسلامية المتوسطية لبناء توازناتها المالية(47). لقد كان بالإمكان شراء مجموعة من الرجال بمملكة أراغون مقابل ثمن فرس واحد، أي بحوالي ستين دينارا(48). غير أن القرصنة ظلت أهم مصدر للعبيد بالحوض الغربي للمتوسط آنذاك..ويمكن القول بأنه إلى حدود عهد أبي الحسن المريني ، ظلت البحرية المغربية قادرة على مواجهة البحرية الأوربية ومنافستها(49)، الشيء الذي كان يسمح بتدفق العبيد النصارى نحو المغرب. والظاهر أن استخدام هؤلاء العبيد بالمنطقة كان يتم بمجالات حيوية، وخاصة بالحرف. ودون أن ننفي خصوصيات كل دولة من دول بلاد المغرب، قد يكون من المفيد الإشارة إلى الأهمية التي اكتساها حضور العبيد النصارى بالدولة العبدوادية. نقرأ في رسالة بعث بها السلطان الزياني عبد الرحمن بن موسى بن عثمان إلى جاك الثاني ملك أراغون في 24 ربيع الثاني من سنة لاتحددها الوثيقة ما يلي: «... وأما ما أشرتم إليه من تسريح جميع ما عندنا من الأسارى، فذلك ما لايمكن أن يكون.... لأن تعلمون أن ما عمر بلادنا إلا الأسارى، وأكثرهم صناع متفننون في أنواع جميع الصناع...»(50).

وتفيد النصوص الأجنبية أن العبيد النصارى توزعوا بين عدة مدن مرينية كفاس وسبتة وطنجة وأصيلا والرباط والكدية وباديس(51). ومن الصعب تقديم أرقام محتملة عن عدد العبيد النصارى بالدولة المرينية. وعموما فإنه تأرجح بين الارتفاع بفعل عمليات القرصنة، والانخفاض بفعل عمليات الافتداء. فقد انتظمت بأوربا المتوسطية مؤسسة معروفة بالفكاك **Alfaqueque** متكونة من رجال الكنيسة ومن التجار بغية افتكاك أسر النصارى من أيدي مسلمي بلاد المغرب. ويتحدث أحد العقود عن افتكاك تاجرين جنويين لأسير إسباني بمراكش سنة 1287(52)،

وفي سنة 1313 إفتك **Claudio de san Raman و Guillem** أسر 236 عبدا مسيحيا بمراكش[53]. غير أنه إذا كان الرقم يفرض نفسه في أية مقاربة ذات طابع إحصائي، فإنه يجب التعامل بحذر مع الأرقام التي توردها المصادر اللاتينية عن عدد العبيد الذين تم افتداؤهم، ولاسيما من طرف الفرق الدينية. فمن المعلوم أنه تعددت هذه الفرق آنذاك ، مثل : «عذراء الرحمة» و«سان جاك» و«فرقة الثالوث المقدس» . وحتى تبرز كل فرقة ريادتها في افتداء النصارى، فإنها انبرت إلى تضخيم عدد من ساهمت في افتدائهم، كما أن الوثائق لاتتحدث عن كل عمليات الافتداء، إذ غالبا مااقتصرت على تلك التي انتهت بفاجعة بالنسبة إلى بعض أو مجموع أعضاء البعثة، وهنا نكون أمام أرقام قد لاتعبر عن حقيقة عدد الذين تم افتكاكهم[54].

د: التبشير الديني: سمحت السلطة المغربية عبر الاتفاقيات التي وقعتها مع مدن ودول غرب أوربا المتوسطية بإرسال رجال دين يفقهون المسيحيين في عقائدهم. وقد مارس هؤلاء شعائرهم بفنادقهم ودورهم بحرية طالما أنهم لم يمسوا المقدسات الدينية للمسلمين[55]. غير أن الحماس الديني المبالغ فيه لبعض رجال الدين المسيحي، والذين تشبعوا بالأفكار الجديدة للقديس فرنسوا[56]، جعلهم يسقطون في تجاوزات دفعت السلطة المغربية إلى التخلص منهم.

والواقع أننا نجهل عدد المبشرين المسيحيين الذين توجهوا إلى المغرب المريني، وغالبا ما تقرن المصادر الكاثوليكية الحديث عن هؤلاء «باستشهادهم» بالمنطقة. وتتعلق معظم الإشارات المتوفرة عن هذا الموضوع بفترة كان المرينيون خلالها بصدد التحركات الأولى التي أفضت فيما بعد إلى تقويضهم للنظام الموحدي. ففي سنة 1212 قتل خمسة عشر مبشرا بالمغرب[57]، وفي يناير 1220 أعدم خمسة من الفرنسسكانيين بمراكش[58]، وفي 10 أكتوبر 1227 قتل سبعة من الفرقة الدينية نفسها، بساحة عمومية بسبتة[59]، وفي سنة 1232 أعدم خمسة آخرون بمراكش[50]. وخلال حكم السلطان المريني أبي يعقوب يوسف ، تتحدث الحوليات الجنوية عن وجود مبشرين بالفرنسسكانية على السفينة التي كان على متنها الأخوان ڤيڤالدي، والتي ضاعت في المياه الجنوبية لآسفي سنة 1291[61].

وكيفما كان عدد رجال الدين المسيحي الذين توافدوا على المغرب المريني، فإن السلطة والمجتمع المغربي أبديا تسامحا تجاههم طالما أنهم لم يخدشوا مشاعر المسلمين، وحسبنا أن قس الجنويين بسبتة، ويسمى **ENRICO** ، قضى مدة سنتين بمنصبه[62].

ومن الواضح أن التبشير الديني – على خطورته – ظل أضعف معبر عن الحضور المسيحي بالمغرب آنذاك. ويمكننا أن نتحدث عن فشل مشروع تمسيح المنطقة، وقد ظل التبشير مقتصرا على الموانئ، بل إنه كان ضعيفا حتى داخل هذه الموانئ[63].

وصفوة القول إن العنصر اليهودي والمسيحي شكلا أقلية سكانية ، بالمقارنة مع المسلمين بالمغرب في العصر المريني. ويبدو أن اليهود توزعوا بمعظم مناطق المغرب آنذاك، بينما اقتصر حضور النصارى على مدينة فاس، وعلى الموانئ. غير أنه إذا كان اليهود والنصارى قد شكلوا أقلية سكانية بالمغرب، فإنهم شكلوا ثقلا متميزا في حياته السياسية والاقتصادية.

الهوامش

1- من ذلك أن المنصور فرض على اليهود لباسا خاصا، وهو عبارة عن ثياب سوداء ذات أكمام مفرطحة، يصل
طولها إلى أقدامهم... وقد توسل اليهود إلى الناصر الذي غير زيهم إلى ثياب صفر وعمائم صفر كذلك.

انظر المراكشي، المعجب.

2- أهم هذه التفسيرات قدمها مهتمون يهود مثل:

- H. Z. Hirschberg; A history of the jews in NorthAfrica.
- D. Corcos; The jews of Morocco under the Marinides. in Jeunis quarterly Review n 54 et 55 (1964 - 1965).
- M. Shatzmiller; Un facteur ethnique dans une révolution sociale médievale: Le rôle des courtisants Juifs sous les Merinides.

أما ما أورده سلوش Slouch في دراسته عن تاريخ اليهود بالمغرب والصادر بالأرشيفات المغربية لسنة 1909، فمن الصعب التعويل عليه لأنه انبرى إلى الدفاع عن قدم الحضور اليهودي بالمغرب وأهميته، في معظم الأحيان من خلال تخريجات محتملة، وفي غياب أي سند مصدري يد عمها. وربما أنه كتب بنفس الخلفيات التي كتب بها :Omensage الذي حاول بدوره أن يدافع عن أهمية الحضور المسيحي ببلاد المغرب وقدمه. انظر : nsage, le christianisme en Afrique- Alger.

3- ابن خلدون: تاريخ العبر. ج. 7، ص. 232.

4- ابن الأحمر: بيوتات فاس الكبرى. ص. 58.

5- عبد الباسط بن خليل : الروض الباسم... ورد في المدينة في العصر الوسيط، عبد الأحد السبتي وحليمة فرحات، 1994، ص. 87 - 88.

6- DUFOURCQ (ch); L'Espagne catalane et le Maghrib au 13 et 14 siècle. P.U.F., Paris, 1966, p. 141.

7- أبو الحسن علي بن يوسف الحكيم : الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة. تحقيق : حسين مؤنس، ط. 2، 1975، ص. 137.

8 – نشير مثلا إلى أن يوسف Joceff Coffen أحد يهود سبتة جمعته عمليات تجارية بملك أراغون جاك الثاني سنة 1319، انظر : DUFOURCQ (ch), Chrétiens et musulmans durant les derniers siècles du moyen âge, Annuario de estudios medievales, T 10, Barcelona, 1980, p. 222.

9– CARCOS; op.cit., pp. 66 - 67.

10– Khanboubi (A), les premiers sultans Mèrinides. Paris, 1987, p. 175.

11 – الوزا : ، وصف إفريقا ج1. صفحات 80 و 93 و 144.

12 – حول صعوبة هذه العملية ، راجع : أحمد التوفيق، إينولتان...، ج. 1 ،ص. 196 – 197. وقد عكست العروض والمناقشات التي دارت بالندوة – التي ألقيت بها هذه المساهمة – اختلافات بينة بين المشاركين في أعمالها حول عدد أفراد الكانون.

13– SHATZMILLER; Un facteur, p. 295.

14 – برانشفيك : تاريخ إفريقية في العهد الحفصي . ترجمة : حمادي الساحلي، بيروت، 1988، ج.1 ، ص. 433.

15 – الزعفراني حاييم : ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب . الدار البيضاء، 1987، ص. 10.

16 – HIRZCHBERG; op.cit., p.385.

17 – ابن أبي زرع : القرطا س. ص. 404 حيث يذكر ما يزيد عن 12 ألف، وفي صفحة 322 يذكر 14 ألف يهوديا.

18 – GAILLARD (H); Fés, une ville d'Islam, Paris, 1905, p. 61.

19 – الدوحة المشتبكة . ص. 137.

20 – HIRZCHBERG; op.cit., p.379.

21 – FERHAT (H); Sabta des origines au 14e siècle, Rabat, 1995, p. 390.

22 – JEHEL (G); les Genois en Méditerranée occidentale, Paris, 1993, p. 210.

23 – حول الملاح اليهودي في فاس، يمكن الرجوع إلى:

DEMONBYNES (G); sur le Mellah au Maroc, Journal asiatique, t. 13, 1914.

24 – نشير مثلا إلى وجود تاجرين يهوديين من سبتة بجنوة في مطلع القرن 13 م. انظر.

SCHAUBE (A); Storia del Commercio dei popoli latini nel Mediterraneo sino alla fine della crociata, Torino, 1915, p. 37.

كما كانت ليوسف كوهن، وهو من يهود سبتة علاقات تجارية بمملكة أراغون. انظر:

DUFOURCQ; Chrétiens, p. 222

CLASCA (R); Un centro marochino del trafico genovese nel medio evo, – 25
in Rivista internazionale di sience sociali, TXLIII, fasc 4, 1935, p. 461.

26 – يتعلق الأمر بشهادة قبر امرأة يهودية تدعى نزفا أو نفزة؟ بنت عمران بنواحي توات تعود إلى سنة 1329.
انظر. HIRSCHBERG; op. cit., p. 369.

DUFOURCQ; op. cit., p. 378.– 27

SEMACH (Y, D); Une Chronique juive de Fés "Le yahas de Ribbi Abner – 28
Hassarfaty,Hésperis, XIX, 1934, p. 87.

MEUNIÉ (J); Le Maroc Saharien, t.I, p. 392. – 28

29 – الزعفراني : ص. 158.

29 – الأنصاري : اختصار الأخبار. ص. 42.

AMARI; Diplomi Arabi del Real archivio fiorentino, Florence, 1863, p. 4.– 30

31 – يبدو أن ورود الإشارات التاريخية بهذا التعميم بالمصادر العربية يجعل من الصعب الظفر ولو بمقالة عن علاقات المغرب مع كل بلد أو مدينة من غرب أوربا في العصر الوسيط.

PISTARINO (G); Notaï Genovesi in Oltremare, Atti rogati a Tunis da Pietro – 31
Battifoglio (1288 - 1289). Genova, 1986.

32 – برنشفيك (ر) : تاريخ إفريقية في العهد الحفصي.

DUFOURCQ; L'Espangne, 465.– 33

Ibid, p. 466.– 34

CHOVIN (G); les relations de la France avec le Maroc des origines à la fin du – 35
moyen âge, Hésperis, 1924.

PISTARINO; Notaï. acte n 29. – 36

Ferretto (A), Codice di diplomatico delle relazioni fra la Liguria, la Toscana – 37
et la Lunigiana ai tempi di Dante 1275 - 1281, A. S. L. P. Genova, 1901 - 1903, p. 242.

GANALE (M. G); Nuova istoria delle repubblica di Genova, del suo commercio – 38
e della suo litteratura, Florence, 1860, T 2, p. 350.

39 – سبق لصاحب هذه المقالة أن أعد مساهمة في موضوع: الارتزاق المسيحي بالدولة المرينية، ندوة الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى، منشورات كلية الآداب، الرباط، 1995. ص ص. 117 – 135.

40 – العمري : مسالك الأبصار. ضمن ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين لمحمد المنوني، الرباط، 1979، ص. 291. أما ابن مرزوق في مسنده فيتحدث عن رقم يتراوح ما بين ألفين وثلاثة آلاف جندي، انظر ص. 282.

41 – يقدم ابن الحاج النميري وصفا أدبيا لايخلو من دلالة عن أهمية حضور المرتزقة النصارى بدولة أبي عنان، فيض العباب... الرباط، 1984، ص. 63.

42 – CIASCA; op. cit, p. 454.

43 – الذخيرة السنية، ص. 91.

44 – ابن خلدون، المقدمة، ص. 720.

45 – نسجل الملاحظة نفسها نسجلها عن المدة التي قضاها بعض المرتزقة النصارى في خدمة الدولة الحفصية. فالمرتزق البندقي Giuliani Francesco عمل في خدمة هذه الدولة مدة 44 شهرا أي ثلاث سنوات وثمانية أشهر. انظر.

DOUMERC (B); Venise et la Barbarie, Thèse de 3e cycle, dactylographiée, Toulous, 1981, p. 29.

46 – يقدر بعض المؤرخين المعاصرين الخسائر البشرية لأوربا من جراء الطاعون الأسود بما بين 1/4 و 9/10 السكان.

انظر: CARPENTIER (E) Autour de la peste noire, famines et épidemies dans histoire du 14 siècle. A.E.S.C., 1962, p. 1071.

47 – CHAUNU (P); L'éxpansion européenne du 13 au 15 siècle, P. U. F. Paris, 1969. p.101 .

48 – DUFOURCQ; l'espagne. p. 551

ونشير إلى أن حاكم جنوة Boccanegra منع مواطنيه من بيع العبيد إلى بلاد المغرب سنة 1316.

49 – HEERS; (J). Esclaves et domestiques dans la monde méditer raneer, Paris, 1981, p. 25.

50 – Alarcon SARTON et Garcia de LINARES; Los documentos arabes diplomaticos del archivo de la corona de Aragon, Madrid-Granada, 1940, p. 184.

51 – DUFOURCQ; L'Espagne, p. 467.

52 – JEHEL; p. 396

52 – DUFOURCQ; L'Espagne, p. 466.

54 -MAS-LATRIE; Traités de paix et de commerce... p. 37.

ومن المعلوم أن هذه الحرية الدينية تجسدت أكثر على عهد المامون الموحدي الذي شهد على حد تعبير دي سنفال «لبرالية تجاه المسيحيين»

55- CENIVAL (De); L'église chrétienne de Marrakech, Hésperis, VII, 1927, p. 72.

56 – من المعلوم أن القديس فرنسوا زار مصر، إلا أنه لا يوجد ثمة مؤشر يدل على أنه زار المغرب، فالواقـع أنـه كـان ينوي زيارته في صيف 1213، انطلاقا من فرنسا ومرورا عبر إسبانيا.

CASINI (A); La provincia di Genova dei Frati Minori della origini ai nostri giorni, Chiavari, p. 15. 1985.

57 - DUFOURCQ; Les relations, op. cit., p. 48.

58 - CENIVAL; p. 70.

59 - LOPEZ (R); Genovesi in Africa accidentale nel medio evo, Torino, 1936, p.9.

60 - DELORME (F); Pour l'histoire des martyrs du Maroc, Quaracchi, 1924, p. 116.

61 - Annali GENOVESI di caffaro et di suoi continuatori. trad. italienne , Genova 1923- 1941. t.5 , pp.123 - 124.

62- FERRETO; op. cit., p. 242.

63 - DELORME; op. cit., p. 112.